في إرشـــاد الأريب
إلى معرفة الاديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٢٥ —

ج ٢ ص ١٩٢ : جواب الخوارزمي (عن رسالة الهمذاني) : شريعة ودي لسيدي إذا وردها صافية ، وثياب برى إذا قبلها ضافية ، هذا مالم يُكدّر الشريعة بتعنته وتعصبه . ولم تخرق الثياب بتجنيه وتسحبه[1] ، فأما الإنصاف في الإخاء فهو ضالتي عند الأصدقاء ، ولا أقول :

وإني لمشتاق إلى ظل صاحب ... يرق ويصفو إن كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والإخوان إخوان ، وحسن العشرة سلطان . ولكني أقول : وإني لمشتاق إلى ظل

رجل يوازنك المودة جاهداً ... يعطي ويأخذ منك بالميزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل ... مالت مودته مع الرجحان

وقد كان الناس يقترحون الفضل فأصبحنا نقترح العدل ، وإلى الله المشتكى لا منه .

قلت : أغلب الظن أن الأصل (ما لم تكدر الشريعة ... ولم تخرّق الثياب) بالخاء لا بالحاء . وعجز البيت الأول هو : (يروق ويصفو إن كدرت عليه) والبيت الأول لأبي العتاهية ، وقبله :

عذيري من الانسان لا إن جفوته ... صفالي ولا إن صرت طوع يديه

والبيتان صوت ، في الأغاني في خبر :

« قال علّويه[2] : فدخلت إلى المأمون فأقبلت أرقص من أقصى الديوان ، وأغني بالصوت (بالبيتين) فسمع المأمون والمغنون مالم يعرفوه فاستظرفوه ، وقال المأمون . ادن يا علويه ، وردّد[1] ترددته عليه سبع مرات ، فقال لي في آخرها عند قولي (يروق إلخ) يا علويه : خذ الخلافة ، وأعطني هذا الصاحب » .

وجواب الخوارزمي عن رسالة الهمذاني (وما أوردته هو قد منه) لم أجده في رسائل أبي بكر المطبوعة في قسطنطينية سنة ١٢٩٧ كما لم أجد رسالة أخرى للخوارزمي رواها ياقوت[2] وذكر الهمذاني في حديث المناظرة المشهورة . وهذه الرسالة جواب عن رسالة للهمذاني[3] . ولا ريب في أن الرسالتين هما للخوارزمي وفقدهما في تلك الطبعة دليل على خلوها من غيرهما .

يقول الإمام الثعالبي في اليتيمة : أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي باقعة الدهر ، وعلم النثر والنظم ، وعالم الفضل والظرف وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة ، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والأدب والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة ، ويبلغ في محاسن الأدب كل مبلغ ، ويغلب على كل محسن بحسن مشاهدته ، وملاحة عبارته ، وديوان رسائله مخلد سائر ، وكذلك ديوان شعره .

وفي (وفيات الأعيان) أبو بكر أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير[4] كان إماماً في اللغة والأنساب ، وله ديوان رسائل وديوان شعر ، وكان يشار إليه في عصره ، وهو ان أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ ، مات سنة (٣٨٣) .

وجاء في (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة[5]) للحاكم : كان واحد عصره في حفظ اللغة والشعر .

ذلكم أبو بكر الخوارزمي ، وتلكم منزلته ، فلن تخدع أحد براعة (البديع) وشيطنته وشعبذته في رسالته[6] ذات الأفاني

---

(١) قلت : تسحبه : تدلله في اللسان : تسحب عليه أي أدل ، فلان يتسحب علينا أي يتدلل وكذلك يتدكل ويتدعب . في الصحاح : تدكل الرجل أي تدلل ، والدكاكة القوم الذين لا يجيبون السلطان من عزهم ، يقال : هم يتدكلون على السلطان أي يتدللون .

(٢) علويه : بالباء .

(١) الفصل : حركوا نحو رد ولم يرد بالحركات الثلاث والزموا الأول عند ضمير الغائب ، والفتح عند ضمير الغائبة .

(٢) ج ٢ ص ١٨٨ و (رسائل بديع الزمان) شرح العلامة الشيخ إبراهيم الأحدب ص ٣٣ .

(٣) ارشاد الأريب ج ٢ ص ١٨٦ و (رسائل بديع الزمان) ص ١

(٤) هذا الجمع في كلام الأدباء واللغويين ، في مقدمة المخصص « أعيان رواتهم ومشاهير ثقاتهم » ج ١ ص ٩ .

(٥) يستدل من قول رواه السيوطي في هذا الكتاب أن ياقوتا ذكر الخوارزمي في كتابه في أخبار الشعراء

(٦) عن أجل رسائل الهمذاني وأعظمها .

فى تلك المناظرة . ومن يصدق أن الخوارزمى لا يعرف « أن للشاعر أن يرد ما لاينصرف إلى الصرف كما أن له رأيه فى القصر والحذف » ويجهل أن معنى « كند النعمة كفرها » ويقول : « ذئب غاض ... يأكل الغضا » وينظم « تسعة أبيات جمع فيها بين إقواء وإكفاء وإخطاء وإيطاء » فيقول البديع « لمن حضر من وزير ورئيس وفقيه وأديب : أرأيتم لو أن رجلا حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط[1] ثم أنشد هذه الأبيات فقط ، هل كنتم تطلقون امرأته ؟ فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ... » .

من يصدق هـذا الشيطان (بديع الزمان) فى الذى نمقه وزوقه ، وقد سمعنا قصته ، وغابت عنا مقالة خصمه وإن أيقنا بأن بداهة الفتى أعجزت روية الشيخ . ورسائل الخوارزمى تحقق قول الثعالبى وغيره فيه ، وتخبر بأن منشيها يفوق الهمذانى علماً وسعة اطلاع . وكلام أحمد بن الحسين الهمذانى ألطف وأرشق ، وكلام الخوارزمى أرصن وأدق ، وهو مسجع وكأنه مرسل .

ولأبى بكر رسالتان عجيبتان كتب الأولى إلى جماعة الشيعة بنيسابور ، وكتب الثانية إلى أبى الحسن البديعى الشاعر . وقد اشتملت كلتاهما على إشارات وأسماء كثيرة تدهشان القارىء ، وتطيلان تعجبه من تلك الإحاطة . وتشاكل الأولى فى الاستقصاء رسالة أبى العلاء فى تعزية خاله ابن سبيكة بأخيه[2] . وتشبه الثانية رسالة ابن زيدون إلى ابن عبدوس الملقب بالفار ؛ وهذه مشهورة ، شرحها ابن نباتة المصرى . والظن بل اليقين أن ابن زيدون قد وقف على رسالة الخوارزمى وقلدها واقتبس منها . ورسالة الأول أطول وأكثر تشعباً ، ورسالة الثانى أقصر ، والمقصد فى الرسالتين واحد ، وهو التقريع والتهكم . وهذه الإغارة — وسمها معارضة — لاتنقص شيئاً من مقدار ابن زيدون الشاعر الساحر والناثر القادر ، و « الذى رزق السعادة فى سعة العبارة » كما قال صاحب (الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم)[3]

أوردُ من رسالة أبى بكر إلى جماعة الشيعة بنيسابور هـذه القطعة نموذجا ، وهى العقيدة ، وهى الخصومة ، وهو الخوارزمى الداهية يلغو (يتكلم) كما يهوى :

« ... وقل فى بنى العباس فانك ستجد بحمد الله تعالى مقالا ، وجل فى عجائبهم فانك ترى ما شئت مجالا . يجبى فيؤهم فيفرق على الديلمى والتركى ، ويحمل إلى المغربى والفرغانى ، ويموت إمام من أئمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته ، ولا تجصص مقبرته . ويموت (...) لهم أو لاعب ، أو مسخرة أو ضارب ، فتحضر جنازته العدول والقضاة ، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاة ، ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً أو سوفسطائياً ، ولايتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً أو مانوياً ، ويقتلون من عرفوه شيعياً ، ويسفكون دم من سمى ابنه عليا » .

ثم يعلق الخوارزمى يقول ... ويجول ...

أخبرنى العلامة الأستاذ أمير البيان الأمير شكيب أرسلان أنه كان ينوى شرح هذه الرسالة . وقد ثناه عما نواه أن الشرح يشيّع ناراً أشعلتها المذاهب والمقالات ، ويزيد « الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً » تفريقاً[1] ، ويظلّم كبارا لم يكونوا ظالمين ، وكانوا خير مظاهرين لشائد هذا المجد . والأمير شكيب يستظهر رسائل الخوارزمى كلها ، ذكر ذلك فى إحدى مقالاته فى جريدة (المؤيد) يوم سأله أحد الأدباء كيف وصل فى الكتابة والأدب إلى هذه المرتبة العليا .

وهذه نتف من رسالة الخوارزمى إلى البديعى :

« ... كأنك لم تخلق إلا لتطمس عين النور ، وتقلب أعيان الأمور ، وتعكس البدعة سنة حتى كأن سوفسطا[2] استخلفك على جحد ما يدرك عياناً ، ويعرف إيقانا .

« ... ولو ذكرت فى القائم[3] ادعيت أنه مضى ... ولو

(١) فى درة الغواص والقاموس ومغنى اللبيب تخطئة مثل هذا . وفى شرح الدرة للخفاجى : قد ورد ما يخالفه فى كلام الناس وفى كلام الزمخشرى و تفسير قوله تعالى (فمنهم مقتصد) إن ذلك الاخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط ، فاعمل فيه لا يبقى وهو مضارع .

(٢) رسائل أبى العلاء ص ١٥٧ .

(٣) ج ١ ص ١٧٨ . وهذا هو الاسم الصحيح للكتاب لا (الغيث المسجم) كما جاء فى الطبعة . وقد هدانى إلى التسمية الصحيحة العلامة الأستاذ صاحب (الرسالة) الغراء .

(١) إنى أعم ولا أخص

(٢) حسب الخوارزمى تلك المقالة أو الطريقة الأغريقية شخصا .

(٣) يعنى المهدى عند إخواننا الامامية الاثنى عشرية ، وهو الآن فى الغيبة الكبرى . فى كتاب الغيبة للامام الطوسى ص ١٢٠ : .. عن الحسن بن الزياد قال سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام يقول : إن القائم لا يقوم حتى ينادى مناد من السماء تسمعه الفتاة فى خدرها ويسمعه أهل المشرق والمغرب وفيه نزلت هذه الآية : إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين .

ذكر أبو جهل حكمت له بالاسلام ، ولو مررت بايوان كسرى استقللت بنيانه ، ولو رأيت إرم ذات العماد استصغرت شانه ، ولو خوطبت فى التراويح أخذت بابتداعها الشيعة، ولو عد الاجبار والتشبيه ألزمت دينهما المعتزلة ، ولو حلم الأحنف بن قيس استخففت عقله ، واستعظمت جهله ، ولو تعجب الناس من بناء الحرميين أخذت تذكر انتقاصه ووهنه ... ولو فضل التوحيد أفردت به النصارى ... »

« لقد أعجبت بنفسك الخسيسة التى لا تستحق العجب حتى كأن كسرى أنو شروان حامل غاشيتك ، وكأن قارون وكيل نفقتك ، وكأن بلقيس ذات العرش العظيم دايتك ، وكأن مريم البتول أمتك ، وحتى كأن العود وجميع الملاهى وضعت اطرابك ، وحتى كأن المريخ يستقى من صولتك ومنائك ، وعطارد يستمد من لطفك وذكائك، وحتى كأن زرقاء اليمامة لم تنظر إلا بمقلتك ، وكأن لقمان لم ينطق بغير حكمتك ، وكأنك بنيت منارة الإسكندرية من آجرّ دارك ، وكأنك علمت زيادا السياسة ، وأفدت عبدالحميد الكتابة ، ولقنت يحيى بن خالد الفصاحة ، وألقيت على الحسن البصرى الحجة ، وعلى الحجاج بن يوسف الثقفى الهيبة ، وحتى كأنك زرعت غوطة دمشق ، وشققت أنهار البصرة ، وهندست كنيسة الرها[1] ، ووضعت قنطرة سنجة[2] ... وحتى كأن فضائل أمير المؤمنين على (عليه السلام) من فضائلك مسترقة . وحتى كأن خالد بن الوليد قاتل تحت رايتك ، وقتيبة بن مسلم فتح البلاد ببركة دعوتك ، وحتى كأنك وضعت التقويم لآدم بن يحيى ، وحللت الزيج[3] الأول ، وعدلت الطبائع الأربع ، وحتى كأنك كشفت لبطليموس الفلك حتى نظر إليه ، ومثلت لجالينوس تركيب الجسد حتى وقف عليه ، وحتى كأنك أورثت بنى أسد الصيافة وبنى مدلج القيافة ، وعلمت شقا وسطيحا[4] الكهانة ، وحتى كأنك علمت حاتم بن عبد الله السخاء ، والسموءل بن عاديا الوفاء ، وقيس بن زهير المكر والدهاء ، وإياس بن معاوية الفطنة والذكاء ، وأخذ عنك سيف بن ذى يزن أخذ الثار ، والإدراك بالأوتار ، وحتى كأنك لا أحد أعلم منك فأضربه مثلا ، ولا أعلى منك فأجعله غاية وأمدا ، ومن شبهك به فقد رد الوصف إليك ، ووفره عليك ، والقرد لا يشبه بغيره ، والراجح لا يوصف بمن تقاصر عن رجحان قدره ... » .

« قد اتفق الناس على ضياع النسخة الأولى من كتاب العين فأمله علينا ، وأجمعوا على ذهاب قراءة أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود فأخرجها إلينا ، وتخالف الناس فى المهدى وشكوا فى السفيانى وفى الأصفر القحطانى[1] فعرفنا متى يخرجون ؟ فانى أعلم أنهم إليك يختلفون، وفى أمرك ونهيك مترددون ، وبمشورتك يغيبون ويحضرون . وآل أبى طالب قد علمت أنهم مسلوبون حقهم ، ومغصوبون إرثهم ، فتقدم إلى غلامك الدهر بأن يرفع رايتهم ، ويرد إليهم ولايتهم ... »

« ... إنى — وفقدك — فلا شىء أعز على منه ولا أحسن منه ما سمعت قول على بن جبلة فى أبى دلف :

إنما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

إلا غضبت عنك عليه ، واعتقدت أنه سرق صنعتك ، وأعار أبا دلف مدحتك ، ولا سمعت قول ليلى :

فتى كان أحيا من فتاة حيية وأشجع من ليث بخفان خادر

إلا قلت : فكيف لو رأت ليلى أخانا فتعلم دعواها من دعوانا ؟

أنت (رحمك الله تعالى) من أيدى هؤلاء الشعراء الكذابين مرحوم ، وفيا بينهم مظلوم ؛ سلبوك علاك وهى حلاك ، وحلوها قوما سواك ، والمدح الكاذب ذم ، والبناء على غير أساس هدم ... »

أجتزئ بهذه النتف القصيرة القليلة من تلك الرسالة المتبحبحة المتفننة الطويلة .

وللخوارزمى شعر كثير جيد ، منه هذه المقطوعة فى نقد الألقاب فى زمانه :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ما كان يرضى به (للدار) بوابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

وأختم الحديث عن أبى بكر بهذا الخبر الدال على فرط كلفه بالعلم : « قيل لأبى بكر الخوارزمى عند موته : ما تشتهى ؟ قال : النظر فى حواشى الكتب ... ! »

(١) ذكرت هؤلاء الثلاثة فى مقالى : (المهديون المنتظرون) ، فى الرسالة ١٩٢ السنة (٥) وفى كتابى : (الاسلام الصحيح) الباب الثالث فى المهدى والمهدوية .

(١) معجم البلدان : الرهاء بضم أوله والمد والقصر ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ .

(٢) معجم البلدان : سنجة : نهر عظيم . وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة فى إحدى جانبى الدنيا وهى طاق واحد من الشط إلى الشط .

(٣) الزيج : فى مفاتيح العلوم . الزيج كتاب يحسب فيه سير الكواكب ويستخرج التقويمات أعنى حساب الكواكب سنة سنة وهو بالفارسية زه أى الوتر ثم عرب فقيل زيج وجمعوه على زيجة كقردة .

(٤) فى مقالى (شق وسطيح والقرآن وابن خلدون والربانيون) فى الرسالة ٢٤٩ السنة ٦ — أثبت أن هذين لم يكونا قط ، وأن قصتها حديث خرافة .